الخطاب الكولونيالي و أزمة الهوية عند إدوارد سعيد

The Colonialist Speech and Edward Said's Identity Crisis

د.عبد الله مصطفى*

جامعة البليدة ٢ (لونيسي علي)،

(الجزائر)

musabdellah٥٣@gmail.com

تاريخ الاستلام:٢٠٢٢/٠١/٢١ تاريخ القبول: ٢٠٢٢/٠٧/١٥. النشر ٢٠٢٤/٠١/٢٢

ملخص:

يعتبر كتاب " الاستشراق " لإدوارد سعيد منعطفا حاسما في فهم الذات من وجهة نظر الآخر الامبريالي المتعالي الذي يسعى إلى فرض مقولاته المثقلة بمفاهيم إيديولوجية، تسعى إلى تحقير المستعمر الغربي للشرقي المسلم، فالاستشراق في منظور ادوارد سعيد ليس مجرد نقل لميراث الحضارة الشرقية بقدر ما هو منتج يحمل أبعادا وأهدافا سياسية موجها من قبل السلطة، فقد نهل الرجل من الرافد الشرقي الذي تشبع بروح الإسلام ومبادئ العقيدة والغربي و ما تضمنه من تخطيط للسيطرة و انتقاص للأخر فكان كتابه تفكيكا للرؤية الاستشراقية الغربية . لذا سعينا إلى ضبط دلالة الاستشراق و آليات توظيفه من طرف المستشرقين اعتمادا على المنهج التحليلي و النقدي المقارن لتبيان حقيقة الشرقي و الطريقة التي يقدمه بها الغربي الكولونيالي. فكيف نظر المفكرين العرب إلى الاستشراق و المستشرقين؟ وما دلالة الاستشراق عند إدوارد سعيد؟ وكيف وظف الاستشراق والإعلام الاستشراقي في وجه الإسلام؟ وما الآليات التي استعملها الغرب في ترويج الإيديووجيا الاستشراقية المغرضة؟

الكلمات المفتاحية: استشراق؛ ادوارد سعيد؛ كولونيالي؛ إيديولوجيا؛ فكر.

Abstract

Edward Said's "Revelation" is a critical turning point in understanding the self from the point of view of the arrogant imperialist other, who seeks to impose his proclamations, which are overloaded with ideological concepts, which seek to vilify the Western Colonist of the Muslim Oriental. In Edward Said's perspective, it is not so much a transfer of the legacy of Eastern civilization as a product with political dimensions and objectives directed by power, but a man from the Eastern tribe who is imbued with the spirit of Islam, the principles of faith and the Western, and whose planning of control and detraction to the other, whose book was a deconstruction of the Western vision. Therefore, we have sought to control the meaning of revelation and the mechanisms for its use by the revelers based on a comparative analytical and critical approach to the reality of orientalism and the manner in which it is presented by the Colonialist Westerners. How did Arab intellectuals look at revelation and revelations? And what's the meaning of Edward Said's revelation? How did revelation and forward-looking media employ Islam? What mechanisms has the West used to promote pseudoscience?

KeyWords: **Sensation; Edward Said; Coloniale; ideologically; Think.**

*عبد الله مصطفى *musabdellah٥٣@gmail.com*

مقدمة: لقد شكل الآخر بؤرة توتر في فهم الذات و منعرجا حاسما في رسم معالم الأنا ، وفقا لمعايير تبدد كل ما من شأنه أن يحمي الهوية و يكرس المقومات ، فقد شكل الإسلام عقدة أمام الآخر في تماهيه مع ذاته المنطوية على أرضية أوروبية قروسطية، جعلت من الإطلاع على الآخر عبر الكتابات الاستشراقية ملاذا للتشكيك في ثوابته وإمكانياته و أخلاقه و حقيقته كما يؤكدها التاريخ ، و لم يحض إدوارد سعيد بهذا القدر من الأهمية في الساحة الفكرية والأدبية و النقدية العالمية إلا من خلال كتاب " الاستشراق " الذي ضمنه بأدوات التحليل الفلسفي الغربي مستعينا بأفكار رواد الحداثة الغربية أمثال فوكو(Michel Foucault) وغرامشي(Antonio Gramsci) ونيتشه (F. Nietzsche)موظفا الخطاب الغربي في وجه الخطاب الغربي الكولونيالي.

I. موقف المفكرين العرب من الاستشراق:

لم يكن إدوارد سعيد أول من تحدث عن الاستشراق ، أو أول من سعى إلى كشف أبعاده و أهدافه المعلنة التي تبدو للعيان أو المضمرة و التي تبطن أكثر مما تبدي، فما يميز دراسته هو الطابع الحفري الذي يستنطق النصوص و الذي يحسن تشخيص المعضلات من خلال النقد الراديكالي لآليات السيطرة المبيتة في الخطاب السردي في الأدب والسياسة والإيديولوجيا. فقد تطرق لمفهوم الاستشراق الكثير من المفكرين العرب من خلال كشف مخططات المستشرقين ويمكن اختزال مواقف المفكرين العرب في اتجاهين مركزيين :

١- **موقف الرفض المطلق للاستشراق** : فقد مثل هذا المفهوم حركة استكشافية ساعدت على تعزيز الحركات الاستعمارية لبلاد الشرق من قبل الغرب في النصف الأول من القرن العشرين ، و غرضه الأساسي أن يقدم الإسلام على أنه الخطر المحدق بالغرب المسيحي و الذي ينبغي محوه ، فقد كانت هذه الحملات صليبية في مراميها لا تستهدف البنية الاقتصادية في حقيقتها و هذا ما نجده عند محمد البهي ومالك بن نبي و عبد اللطيف طيباوي، فقد رفض محمد البهي جهود الاستشراق التي تحمل الضغينة للإسلام و المسلمين و التي تعمل على تقويض الثوابت الدينية و التي تقول بعدم أصالة القرآن و أنه ليس أكثر من امتداد للديانتين اليهودية و المسيحية، كما انتقد الطيباوي ماسينيوس (Louis Massignon)في محاولة إلحاق التصوف الإسلامي بالتصوف الفارسي و الهندي مشككا في الأصول الإسلامية للتصوف كما انتقد فرانز روزنا (

Franz Rosenthal)و مونتجومري واط (w.Montgomery Watt) في التأثير التاريخي للمعتقد اليهودي و المسيحي على القرآن كتابا والإسلام عقيدة .

و هذا ما أكده مالك بن نبي الذي أظهر موقفا معاديا للاستشراق بكل أشكاله سواء الاستشراق الذي لعب دورا سياسيا استخباراتيا في التعرف على الشرق و تشويه صورته كمبرر لاستعمار و نقل الحضارة ، أو ذلك الذي أبدى براءة مصطنعة ترسم الشرق بمخيال السذاجة و سجال التخلف في تعاطيه مع التراث ، فغرضهم صيان فالاستشراق عند مالك بن نبي مكيدة يحيكها الغرب على الشرق و إن أبدا عاطفة في دراسته لفضل الإسلام والمسلمين بذكر مناقبهم و تراثهم و حضارتهم ، فالغرض في نهاية إيجاد مطية يركبها المستشرق ليدس السم في العسل "كما تجب الملاحظة أيضا أن العالم الإسلامي أصبح في هذه الملابسات يعاني الصدمة التي أصابته بها الثقافة الغربية ... لقد أحدثت هذه الصدمة ، عند قبيل من المثقفين المسلمين ، شبه شلل في جهاز حصانتهم الثقافية ، حتى أدى بهم مركب النقص إلى أن ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي ، و ألقوا أسلحتهم في الميدان ،كأنهم فلول جيش منهزم في اللحظة التي بدأ فيها الصراع الفكري يحتدم بين المجتمع الاسلامي و الغرب فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاته في التزي بالزي الغربي " (نبي، ١٩٦٩، صفحة ١٠)

٢– أنصار النزعة التحليلية : و يمثل هذا الاتجاه محمد آركون و أنور عبد الملك و هشام جعيط و عبد الله العروي ، فقد كان ردهم أقل حدة و لهجتهم أقل سخط على المستشرقين و ركز نقدهم على مناهج المستشرقين و تفكيك منظوراتهم التي قامت على تفوق الغرب مقابل دونية الشرق ، فعبد الملك انتقد المنهج الفيلولوجي الذي قام عليه الخطاب الاستشراقي من خلال الاهتمام بالدلالات الحرفية على وعزلها عن سياقاتها التاريخية وواقعها .

أما محمد آركون فقد درس المنهجية الاستشراقية أو ما يسميها بالإسلاميات الكلاسيكية و التي تتضمن الخطاب الغربي جول الإسلام والذي كان له بالغ الأثر في تنشيط الفكر العربي الإسلامي مع ماسينيوس و دوسلان وغرونج ...الذين سحبوا نصوصا ذات أهمية من نسيان طويل و شقوا طرقا جديدة و أساسية في للبحث في بعض القضايا و اللهجات المهملة و التي أسدل الستار عليها من قبل الباحثين العرب، فكانت دراسة آركون للاستشراق قريبة إلى المهادنة و الهدوء و استبعاد التشنج و الإشادة بدور المستشرقين المقترنة بالشعور بالمديونية الشرقية لهؤلاء و إن كان يقف منه في الكثير من الأحيان موقف النقد و الحذر، الأمر الذي أدى ببعض المفكرين العرب إلى الاعتراض الذي وصل حد الرفض و الاتهام لمواقف آركون و تلاميذه و أنور عبد الملك و غيرهم، وهذا ما نجده مع محمد المزوعي الذي شن حملة شعواء على مواقفهم و هذا ما يظهر في كتابه " العقل بين التاريخ و الوحي حول العدمية النظرية في إسلاميات محمد آركون " و الذي قدم فيه نقدا راديكاليا للمشروع الآركوني و الذي يصفه بـ(مشروع تجهيلي

بالأساس " (المزوغي، ٢٠١٧، صفحة ٢٨) كما أنه " مشروع عبثي تخريبي بأتم معنى الكلمة " (المزوغي، ٢٠١٧، صفحة ٧٤) وذلك أن هذا المشروع يبجل الإرث الاستشراقي القائم على المنهج الفيلولوجي على أساس أن هذه الدراسات قادرة على هدم العقائد الإيمانية ، و" اعتماده نظرة عقلانية متحررة للقرآن و الوحي و النبوة " (المزوغي، ٢٠١٧، صفحة ٢٥) .

و يرى المزوغي أن مواقف آركون للإسلاميين قائمة على الكره و الحقد و على من سار في فلكهم و هذا ما يتضح في قوله " الإسلاميون بجميع فصائلهم عنوان العمالة و اللاوطنية و الخيانة و الانتهازية و الإرهاب " (المزوغي، ٢٠١٧، صفحة ٦٣) و هذا يعني بالنسبة للمزوغي أن آركون بمواقفه النقدية للاستشراق و مناهجه الفيلولوجية التي تهدم أصول الإسلام و عقائده يقف في صفهم و يدعمهم و بهذا فهو علماني متملق هو ومن سار في نهجه .

II. إدوارد سعيد و الوعي الكولونيالي

ولد ادوارد سعيد في القدس الغربية في نوفمبر ١٩٣٥ في عائلة مسيحية من أب فلسطيني يحمل جنسية أمريكية و هو رجل أعمال و أم فلسطينية تحمل جنسية لبنانية تحصلت عليها فيما بعد، و عاش متنقلا بين حي الطالبية في القدس الغربية و حي الزمالك بمصر و بعد دراسته الثانوية بمصر غادر هذه الأخيرة سنة ١٩٥١ و التحق عام ١٩٥٣ بجامعة برينستون بالولايات المتحدة ليتحصل فيها على الليسانس في الآداب، ليكمل دراسته بجامعة هارفارد من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٣ و لم يعد إلى فلسطين حتى سنة ١٩٩٢ مع زوجته وولديه ليتفقد بيت عائلته ومنزل أمه.

و يمثل كتاب" خارج المكان " سيرة ذاتية تكشف اغتراب الذات عن ذاتها في شخص الرجل التي عبر عنها بنوع من التهكم و السخرية الناتجة عن مفارقات يصعب الربط بينها ثقافيا و اقتصاديا و اجتماعيا يصيغها إدوارد سعيد في شكل ثنائيات بين الوجود و العدم و الأنا و الآخر و بين الهوية و الغيرية و المطابقة و الاختلاف، فهذه الأزواج المفارقة التي طبعت التحليل السيري لسعيد بين الأصل العربي الفلسطيني و بين وعيه الغربي الذي احتضن شبابه و ثقافته، فهذا التشظي في وعي الرجل هو الذي شكل فيما بعد موقفه النقدي الصارم للمؤسسة الاستشراقية الكولونيالية ، و تبدوا تمظهرات الوعي الكلنيالي من شخصية إدوارد سعيد في التجليات التالية :

١- إشكالية الاسم و عقدة الهوية

يشكل الاسم انتماء عرقيا و ثقافيا ومحددا أساسيا للهوية، و هذا أولى الانزلاقات في مسار الهوية عند الرجل والتي شكلت له محنة شخصية سبقته إلى الوجود و استمر وجودها معه فقد امتدت المحنة لأكثر من خمسين سنة ليعتاد على اسمه " إدوارد" الذي لم يكن متداولا في المجتمع الذي كان ينتمي إليه " هذا الاسم الانجليزي الأخرق الذي وضع كالنير على عاتق " سعيد" اسم العائلة العربي القح" (سعيد، ٢٠٠٠، صفحة ٢٥) لقد شكل اسمه علاقة متنافرة

بين المنشأ والاسم و بين الاسم و لقب العائلة أحدها عربي خالص و الثاني انجليزي و هنا يتموقع الرجل في الهوة الحاصلة بين الهويتين ، فهذا التركيب الاسمي الهجين جعله إنسان غريب في موطنه الأصلي فلسطين و غريب في موطنه الحديث الولايات المتحدة الأمريكية و هذا ما يشكل شرخا و تمزقا و انفصاما في التركيب الاسمي غير المتجانس يضمر تضاربا في الدلالات الثقافية و الدلالات السياسية في بلد مستعمر و كان يصرح قائلا " و خلال سنوات من محاولاتي المزاوجة بين اسمي الانكليزي المفخّم و شريكه العربيّ ، كنت أتجاوز (ادوارد) و أؤكد على (سعيد)، تبعا للظروف و أحيانا أفعل العكس أو كنت أعمد إلى لفظ الاسمين معا بسرعة فائقة بحيث يختلط الأمر على السامع .و الأمر الوحيد الذي لم أكن أطيقه ، مع اضطراري إلى تحمله ، هو ردود الفعل المتشككة و المدمرة التي كنت أتلقاها : إدوارد ؟ سعيد ؟ " (سعيد، ٢٠٠٠، الصفحات ٢٥-٢٦)

٢- مشكل اللغة

لم يكن الاسم فقط ما كان يؤرق ادوارد سعيد فهو هجين اللغة أيضا " ما أعرفه هو أن اللغتين كانت موجودتين دوما في حياتي الواحدة منهما ترجّع صدى الأخرى ، و تستطيع كلا منهما ادعاء الأولوية المطلقة، من دون أن تكون هي فعلا اللغة الأولى . و أنا أعزو مصدر هذا الاضطراب الأوّلي إلى أمي التي أذكر أنها كانت تحدثني بالانكليزية و العربية معا على الرغم من أنها كانت تراسلني بالانكليزية على مدى حياتها " (سعيد، ٢٠٠٠، صفحة ٢٦)

لم يستوعب الطفل إدوارد حقيقة انتمائه بين جملة المتناقضات التي تتقاذفه في كينونته فقد كانت هذه الازدواجية اللغوية شكلت بؤرة الصراع في الوعي بالذات و هي في مرحلة التشكل عبر سياقها التاريخي والاجتماعي و الديني فأمه فلسطينية و من أين لها بالانجليزية و هي لا تتخلى عن العربية و تزاوجها بالانجليزية و هي مشكلة الأب أيضا و هذا ما زعزع الاعتقاد باستقرار الهوية لديه و التي ترتبط ارتباطا لا ينفصم بتداعيات المشروع الكولونيلي و نتائجه المفجعة التي تضرب في صميم الأنا .فاللغة هي بيت الكائن على حد تعبير هيدغر و التي لا يمكن أن يحقق الفرد ذاته في غيابها أو اضطرابها و هذا التمزق في البناء اللغوي لشخصية الرجل خلق تمزقا في وعي الانتماء كيف لا و اللغة حاملة الثقافة والسياسة والايديولوجيا .

٣- مشكل الانتماء الجغرافي و الثقافي:

المراحل التي عاشها إدوارد سعيد و التي تباينت فيها الدول التي عاش فيها وقفت كحائل بينه وبين وعيه لانتمائه الجغرافي و العقائدي و الديني و الثقافي و الاجتماعي و اللغوي ، فقد أمضى حياته يستجمع الوحدة التي فرقتها رحلاته و انتماءاته المختلفة فقد أسر إصرار أبيه مخياله بأنه أمريكي لكنه اسر زائف يمحو الماضي والأصول، غير

أن أصوله الشرقية لم تحقق له الطمأنينة الوجودية و لم تجبه عن سؤال الهوية فلم يكن لوالديه أي أعراف أو موروث يلقناه لأبنائهم .و لم ينسى بتاتا الاختلاف الذي يبلغ درجة التناقض بين حي الطالبية الفلسطيني العتيق و حي الزمالك المصري و الفرق في المستوى الاجتماعي والديمغرافي و الاثني و الثقافي والديني بينهما "كان حي الزمالك صورة مثلى لتجلي المركزية الغربية ، و طغيان الهيمنة الأمريكية .في أبرز معانيها " (سعيد، ٢٠٠٠، صفحة ٤٧)

و كانت اللغة العربية تنم عن تردي المستوى في مدرسة القاهرة للأطفال الأمريكيين ففي مدرسة فكتوريا كولدج " تقول القاعدة رقم واحد الانكليزية هي لغة المدرسة .كل من يقبض عليه متكلما لغات أخرى يتعرض لعقاب صارم " (سعيد، ٢٠٠٠، صفحة ٢٣١) فإدراج لغة المستعمر و فرضها بالقوة و تجريم استعمال اللغة الوطنية العربية هي إحدى العناصر الفتاكة للممارسة الكولونيالية التي تجهض كل نهضة فكرية .

نظرا للتجربة المريرة التي مر بها الرجل في فقدان الهوية بين دول العالم العربي و الغربي وقف موقفا معاديا من الفكر الغربي الكولونيالي و ما حمله هذا المشروع من تأجيج الوضع في الشرق الأوسط على حد تعبير المستشرقين و تكريس المركزية الغربية على حساب الثقافات الأخرى و تعرض نفسها على أنها مشروع إنساني و هي الخيار الوحيد و النموذج المثالي الذي ينبغي أن تتبع خطاها بقية دول العالم ، ويعتبر كتاب " الاستشراق " و كتاب " الثقافة و الامبريالية "المدخل الرأسي الذي يترجم موقف إدوارد سعيد من الاستشراق و انعكاسات هذا المفهوم على الوعي الشرقي لذاته بين وعي الهوية و وعي الكولونيالية.

III. دلالة الاستشراق عند إدوارد سعيد :

يستهل سعيد كتابه الاستشراق بتعميق هذا المفهوم و ربطه بخلفياته و مراميه ، فقد لجأ الغرب إلى دراسة الحياة الشرقية و ديانتها و عاداتها و تقاليدها و مقدساتها قصد التعرف على نقاط القوة و العجز فيها بغرض إخضاعها و إذلالها " فالاستشراق هو المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق ، أو بصفة أخرى هو أسلوبيا غربيا للهيمنة على الشرق و إعادة بنائه " (سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ٢٠٠٦، الصفحات ٤٥-٤٦) فلم يكن غرض الغرب التعريف بالشرق و بجذوره التاريخية والتعرف على كنهه بقدر ما هو وسيلة للسيطرة " ... و هنا يبرز مرة أخرى دور الاستشراق ليقوم كهنته بدراسة مستفيظة عن البلدان الإسلامية وتقديم النصائح المناسبة لأرباب الاستعمار و التي تكفل لهم قهر المسلمين و إذلالهم و استمرار السيطرة عليهم " (محمد، ٢٠٠٠، صفحة ٥٧)

و يرى سعيد أن الغرب قد ميز بين الغرب و الشرق جغرافيا و كان هذا محل مباركة من قبل رجال الدين والسياسيين و الفلاسفة و الأدباء و رجال الاقتصاد ، فالاستشراق هو الساعد الثقافي لتدبير شؤون الشرق والسيطرة عليه و هذا التقسيم الجغرافي قد تداوله الأدباء في رواياتهم أمثال غوستاف فلوبير (Gustave Flaubert)و السياسيين في خطاباتهم المغرضة مع بيلفور (Belfort) و اللورد كرومر(Cromer) اللذان يتحدثان عن الشرق و كأنهما الناطقان الرسميان لبلاد الغرب " فاللغة التي يستخدمها كرومر و بلفور تصور الشرقي في صورة شيء يصدر الحكم عليه (كما يحدث في المحكمة) أو شيء يدرسه المرء و يصفه (كما هو الحال في المقرر الدراسي) أو شيء يؤدبه المرء (كما يحدث في المدرسة أو السجن) " (سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ٢٠٠٦، صفحة ٩٧)

IV. الإسلام و الخطاب الإستشراقي

أما بالنسبة للدين فقد أكد إدوارد سعيد أن المستشرقين قد صنعوا صورة مشوهة في المخيال الغربي عن الإسلام و المسلمين ، فالإسلام رمز خطر و تهديد للعالم و للغرب على وجه التحديد و هو المنافس الرهيب للديانة المسيحية في حقل المقدس و بالتالي للعالم الغربي " ثم أنه ينظر إليه بنوع متميز جدا من العداء والخوف (الإسلامفوبيا)" (لويس، ١٩٩٤، صفحة ٣٥) و قد كتب إدوارد سعيد كتاب " تغطية الإسلام" أو بالتعبير الدقيق للعنوان التغطية الإعلامية للإسلام و الذي يصف فيه مواقف الإعلاميين الأمريكيين و تعاملهم مع حدث احتلال السفارة الأمريكية في طهران عام ١٩٧٩ و احتجاز الرهائن و التحاملات التي أبداها هؤلاء الإعلاميين على الإسلام الشيعي و التعميمات الإعلامية المغرضة في تعاطيها مع الإسلام و التي فضحت الذهنية الأمريكية و صناع القرار و تصوراتهم للعالم الإسلامي في ظل اختزالات مضغوطة واستقراءات تنم عن قصر في النظر فمن الحادثة القائمة في السفارة تم الحكم على إيران و من إيران تم الحكم على الإسلام الشيعي و من الإسلام الشيعي إلى الإسلام بعامة " و لكن ردود الفعل على أحداث إيران لم تقع في فراغ ، فوراء تخوم الوعي الثقافي للجمهور كان يكمن الموقف الذي طال أمده تجاه الإسلام و العرب و الشرق بصفة عامة و هو الذي كنت و لا أزال أطلق عليه صفة الاستشراق ... و من هنا جاءت الصورة الكاريكاتورية المتواترة للمسلمين باعتبارهم موردين للنفط ، و إرهابيين ، و أخيرا باعتبارهم جماهير غوغائية متعطشة للدم " (سعيد ا.، ٢٠٠٥، صفحة ٧٤) .

و قد عمق إدوارد سعيد الهوة التي يرغب الغرب في تكريسها بين الشرقي و حقيقته الدينية فيما سماه بالصدمة الدائمة للإسلام في إطار الإساءة للدين و القرآن و الرسول عليه الصلاة و السلام ، فقد اعتبر الرسول محمد في أدبيات الاستشراق " نبيا للوحي الكاذب " و هذا ما أكده سعيد من خلال ما نقله عن نورمان دانيال بأن

النبي محمد قد أصبح في عيون الغربيين مثالا " للفجور و الفسق و الشذوذ، و أنه منظومة كاملة من الخيانات المختلفة " (سعيد إ.، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ٢٠٠٦، صفحة ٦٢) و هذا ما لجأ إليه توماس كارلايل (Tomas Carlyl) الذي يعتبر القرآن " خليطا مشوش مضجر ، خام ،فج أنه ، تكرار لا نهائي . إسهاب ممل ، تعقيد ، و باختصار هو خام ، ركيك غباء لا يحتمل " (سعيد إ.، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ٢٠٠٦، صفحة ١٥٢).

و لم يسلم المسلمين الشرقيين من نظرة الانتقاص التحقيرية التي يرسمها الغربي في المخيال العالمي و التي تسمه بالانحلال الأخلاقي الجنسي الشبقي الذي تعبر عنه الرواية العربية مثل " ألف ليلة و ليلة " التي رسمت المرأة الشرقية بمخيال المنفلتة الخائنة و رمز للعشق و استثارة الجنس و الشبق.

V. آليات الاستشراق الكولونيالي :

١- الاستشراق و تواطؤ المعرفة

لقد سعى ادوارد سعيد الى تقويض العقلانية الليبرالية التي تدعي الإنسانية و السعي إلى تكريس الممارسة السياسية الرشيدة و هذا ما تحدث عنه كليمانطا(H. Klimenta) في كتابه " أكاذيب العولمة العشر " ومنها عرض الممارسة الليبرالية على أنها الخيار الوحيد و المثالي لكل دول العالم و التي ليست في حقيقتها أكثر من " إيديولوجيا الغرب لمواجهة الثقافات غير الغربية " (هنتغتون، ١٩٩٩، صفحة ١٥٩) و قد توصل إدوارد سعيد من خلال تحليل وتفكيك الخطاب الكولونيالي الاستشراقي إلى أن هدف الغرب إقصاء الآخر من خلال الصورة النمطية التي يعرض عليها الشرقي على أنه " لا عقلاني فاسق طفولي متخلف بينما صورة الغربي على أنه عقلاني متحل بالفضائل ناضج سوي" (سعيد إ.، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ٢٠٠٦، صفحة ٧٨)

فقد كان الخطاب الغربي في شكله الأكاديمي البحثي مبطنا بالنوايا المغرضة الموجهة ضد المستعمر الشرقي، فالشرق الذي يتحدث عنه الغرب في خطابه اللغوي لا يعكس حقيقة الشرقي بقدر ما يعكس آليات التحقير و الانتقاص التي أراد أن يلصقها به ، و بهذا فقد تم توظيف اللغة باعتبارها وسيلة وآلية تعرف الشرقي بالمنظور الذي يريده الغرب في نظر العالم و لم تصبح حقيقة الشرقي إلى حقيقة لغة فلم تعبر عنه " بصورته الحقيقية بل بصورته التي رسمها له الاستشراق ، و رابطة اللغة و الاستشراق و رابطة المعرفة و السلطة تربط رجل السياسة الأوربي أو الغربي بالمستشرقين الغربيين مثل قوس متصل الحلقات " (سعيد إ.، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ٢٠٠٦، صفحة ١٠٦)

و هذا ما نجد له مثيلا عند ميشيل فوكو الذي يرى أن مفهوم السلطة لم يعد مقتصرا على مؤسسات الدولة وأجهزتها و دساتيرها بل سخرت حتى المعرفة في تبرير أفعالها و نقل أفكارها فشيئت اللغة كخطاب إلى آلية في خدمة السلطة تبرر الكولونيالية الغربية على الشرق و الخطاب في مفهوم فوكو " موضوع الصراع من أجل الحصول على السلطة ، فهو ليس فقط انعكاسا للصراعات السياسية بل هو المسرح الذي يتم فيه استثمار الرغبة ، فهو ذاته مدار الرغبة و السلطة " (فوكو، ٢٠١٢، صفحة ٦٦) .

كما تم استغلال الثقافة في فرض مقولات الاستشراق التي تتسلل في اللاوعي و تصنع بدورها النظرة التحقيرية الانتقاصية للشرقي و هنا يوظف إدوارد سعيد أنطونيو غرامشي من خلال مفهومه للهيمنة الناعمة و الثقافية والمثقف العضوي الذي انخرط في لعبة الاستهلاك العشوائي لثقافة الآخر و انخراطه في صبغة الدونية التي يرسمها الآخر على الذات و التي سلمت مصيرها له بأن يسمها بما يشاء دون أدنى رغبة في المقاومة و لماذا يقاومها إذا كانت تنشر الحضارة في أرضه و هذا ما أشار إليه غرامشي بصيغة الهيمنة، فهناك هيمنة عبر القوة و هناك أيضا هيمنة لا تستخدم القوة بل تتسلل إلى العقل و تحتله و هي توظف اللغة و الخطاب والنصوص و الثقافة كي تقنع التابع بتخلفه و دونيته .فقد عمد إدوارد سعيد إلى تفكيك الخطاب الكولونيالي و مابعد الكولونيالي لاستنطاق المسكوت عنه و المبطن من الأفكار الاستشراقية لاكتناه حقيقة الغرب و أغراضه من هذه الكتابات .

٢– الرواية و فكر الامبريالية الغربية :

لقد انتهى سعيد من خلال تفكيه للخطاب الغربي إلى اتهام مختلف الوسائل التي مهدت للسيطرة و فرض الامبريالية حتى الشكل الروائي لم يكن بريئا فقد تضمن في كنهه تواطؤ مع الامبريالية الغربية و يعتبر كتاب "الثقافة و الامبريالية" لإديدوارد سعيد ١٩٩٣ استنطاق للرواية الغربية في شكلها الامبريالي الذي تمحور حول المركزية الغربية و قدرتها على فرض السيطرة باعتبارها نموذجا للعظمة التي تنفي الآخر و تسيطر عليه "فالرواية هي أكثر الأشكال الأدبية الرئيسية حداثة زمنيا، و إن نشوئها هو الأكثر قابلية للتأريخ ، ... و لقد حضنت الرواية و الامبريالية إحداهما الأخرى إلى درجة عالية يستحيل معها ، تبعا لما يطرحه قراءة أحداهما دون التعامل بطريقة ما مع الأخرى . فالرواية شكل ثقافي اشتمالي تدميجي شبه موسوعي " (سعيد إ.، الثقافة و الامبريالية، ٢٠١٤، صفحة ١٣٩)

فرواية " روبينسون كروزو " لدانيال ديفو(Daniel Defoe) تكشف عن شرعية الكولونيالية في الدول غير الغربية التي لا تملك آليات التطور و التي تتميز بالخمول و الرجعية و الوحشية فالرجل الأبيض هو الأصل والأرقى

في المنظومة التراتبية للبشرية و بهذا فإن الرواية التي عاصرت نشأة الاستعمار التقليدي أقامت تمايزا مطلقا بين الذات الغربية و الآخر و هذا ما يظهر أيضا في روايات ألبير كامو(Albert Camus) الذي ولد في الجزائر وثار ضد الجزائريين من خلال حنينه لموطن هادئ يأوي أصحاب الأقدام السوداء . فقد سعى المستشرقين عبر الرواية إلى ترويض اللغة وامتطائها بغية تكريس آليات السيطرة تكريسا يتماها مع الكولونيالية الغربية و متطلباتها . فالجمالية الروائية قد تمت تشيئتها و توجيهها إيديولوجيا، فتحولت الجمالية كمقولة إستتيقية إلى جمالية القبح فصنعوا للقبح جمالية تروض اللغة لتخدم أفكارا مغرضة تعتبر الإنسان الشرقي إنسانا عاجزا غير قادر على مسايرة الحركية و التطور الذي عرفه الإنسان الغربي كما تعرفه على أنه ذلك الإنسان الذي تسيره غرائزه و يحركه التقليد الأعمى للغربي المتطور و الذي يفرض مقولاته و يرسم الصورة التي ينبغي أن يأخذها الشرقي عن نفسه باعتباره تابعا و مجسدا للصورة النمطية التي تأبى كل تغيير .

خاتمة

لقد لجأ إدوارد سعيد في كتابه " الاستشراق " و كتاب " الثقافة و الإمبريالية " إلى تفكيك الخطاب الكولونيالي و الذي اتخذ من اللغة مطية له في نقل أفكاره المثقة بحمولة تنم عن حقد دفين للآخر الشرقي عبر الخطابات السياسية و الإعلامية و لم تسلم حتى الرواية من التعبير عن ما يختزن في كنه الرجل الأبيض على الإنسان الشرقي، فقد استنطق نصوصها و نقل المسكوت عنه من حيز الكتمان إلى حيز التصريح بلغة الغربي فاضحا الفكر الامبريالي و السياسة الكولونيالية التي حملتها كتابات المستشرقين ، موظفا فلاسفة ما بعد الحداثة أمثال ديريدا (J.Dirrida) و غرامشي و فوكو في تقويض الايدولوجيا الغربية الموجهة إلى الشرق ، لذا وجب أخذ الحيطة من المخططات التي تحاك ضد الإنسان العربي بل المسلم بصورة أوسع و هذا ما عبر عنه الساسة الأمريكيون في خطاباتهم المعلنة و المبطنة في نقل بؤرة الصراع الإيديولوجي من الغرب الرأسمالي و الشرق الاشتراكي إلى الشمال المسيحي و الجنوب الإسلامي .

فالعرف السياسي الغربي متمثلا في الولايات المتحدة الأمريكية لا يقتنع بوجود علاقات دولية يسودها التسامح و الأمن و الاستقرار فلا بد من البحث عن طرف للصراع يتحدد من خلاله الصديق و العدو فلا يكون هناك مفهوم للصداقة إلا من خلال تحديد العدو المشترك و هذا ما وضحه فرانسيس فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ و خاتم البشر و الذي عبر فيه عن الصراع بين الشرق و الغرب مؤكدا على انتصار الغرب ، لينقل صمويل هنتغتون في كتابه صدام الحضارات بؤرة الصراع الى الشمال المسيحي و الجنوب الإسلامي باعتبار المسلمين الشر المطلق الذي ينبغي الحيطة منه في النظام الدولي الجديد و هذا منطلق الإسلاموفوبيا و الأحداث المفتعلة التي تدين

المسلمين و تقدمهم في صورة نمطية ينبغي الحذر منها باعتبارها عدو المستقبل . و بهذا فقد عبر المستشرقين عن موقفهم من الإسلام و المسلمين و هذا ما يلزمنا إعادة ترتيب أوراقنا و أجندتنا السياسية والفكرية في مواجهة موجة جديدة من العدوان لا تقل شراسة عن العدوان الكولونيالي .

المصادر و المراجع

المزوغي ,م .(٢٠١٧) .*في نقد الاستشراق* .المغرب :افريقيا الشرق.

سعيد ,إ .(٢٠٠٦) .*الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق* .القاهرة :دار رؤية للنشر و التوزيع.

سعيد ,إ .(٢٠١٤) .*الثقافة و الامبريالية* .بيروت لبنان :دار الآداب للنشر و التوزيع.

سعيد ,ا .(٢٠٠٥) .*تغطية الاسلام* .القاهرة :روية للنشر و التوزيع.

سعيد ,إ .(٢٠٠٠) .*خارج المكان* .بيروت ، لبنان :دار الآداب.

علي ,ا .م .(٢٠٠٠) .*الاستشراق بين الحقيقة و التضليل* .مصر :دار الكلمة للنشر و التوزيع.

فوكو ,م .(٢٠١٢) .*نظام الحطاب* .بيروت :دار التنوير للنشر و التوزيع.

لويس ,ب .(١٩٩٤) .*إدوارد سعيد .الاسلام الأصولي في وسائل الاعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية* .بيروت : دار الجيل.

لويس ,ب .(١٩٩٤) .*إدوارد سعيد .الاسلام الأصولي في وسائل الاعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية* .بيروت : دار جيل.

محمد ,ا .ع .(٢٠٠٠) .*الاستشراق بين الحقيقة و التضليل –مدخل علمي لدراسة الاستشراق* .مصر :دار الكلمة للنشر و التوزيع.

نبي ,م .ب .(١٩٦٩) .*إنتاج المستشرقين و أثره في الفكر الاسلامي الجديث* .بيروت :دار الطباعة للنشر والتوزيع.

هنتغتون ,ص .(١٩٩٩) .*صدام الحضارات و إعادة بناء النظام الدولي الجديد* .مصر :سطور.